الذرة تشبه يد الانسان من رسغها الى آخر الاصابع . وقال ان هذه الاشكال الغريبة لا تقتصر على انواع النبات الظاهرة للعيان بل تتناول ايضاً النباتات الميكرسكوبيّة التي لا ترى بالعين لصغرها فانها قد تشذّ عن شكلها العادي وتتشكل باشكال غريبة فتضلّ الباحثين عنها

والاسباب الداعية الى هذه الشواذ في الاوراق والاغصان والازهار والاثمار يمكن قسمتها الى قسمين الواحد ميل النبات الى الرجوع الى اصله فاصل الاسدية اوراق استحالت اسدية فاذا فكّت بعض القيود التي تقيدها بصورتها الحاضرة عادت الى اصلها . واصل الثمر غصن فاذا تيسّر له عاد غصناً كما كان . والثاني ميله الانفعال بالعوارض الخارجيّة فان المخالفة سنّة في الطبيعة كالمشابهة ولو كانت اقل اضطراداً من المشابهة ولذلك نرى الولد يشبه والديه في اكثر الامور ولكنه يخالفهما في امور اخرى ولولا ذلك ما تعدّدت الانواع ولا تمايزت الاصناف ولا فرق بين فرد وآخر . وقد يزيد هذا الاختلاف في بعض الاحايين وتتولد منه الشواذ المذكورة آنفاً

قحف الجماجم

يراد بقحف الجماجم في هذه المقالة كسرها واستخراج الدماغ منها لسبب جراحي . وقد عُرّب في المدرسة السوريّة الطبيّة بالتّرفنة من كلمة يونانيّة معناها المثقب اسم الآلة التي يُثقب بها الرأس ولم تعدُل عنها الى كلمة قحف الّا لان هذا الفعل نفسه كان مستعملاً عند العرب كما سيجيء في آخر هذه المقالة

ومن اغرب ما اكتشفه علماء الاركيولوجيا حديثاً ان بعض الاقدمين من سكان اوربا كانوا يثقبون جماجم اي يثقبونها ويستخرجون الدماغ منها لاغراض سيجيء ذكرها . وقد كشفت الجماجم المثقوبة اول مرة سنة ١٦٨٥ وذكرها مونتفوكون العالم الفرنسوي وقال انه رأى جمجمة مثقوبة من مكانين والظاهر ان صاحبها عاش بعد ثقبها وشفيت جراح رأسه . ثم وجدت جماجم اخرى سنة ١٨١٦ وبينها جمجمة فيها ثقب طولة ثلاث عقد وعرضة عقدتان وقد شفي صاحبها وعاش بعد ذلك عدة سنين على ما قاله كيثبه العالم الطبيعي . ولم تعلم حينئذٍ علة هذه الثقوب وبقي العلماء يظنون انها نادرة جدًّا وانها حادثة من جراح اصيب بها اصحابها في ساحة الوغى الى ان قام الدكتور برونير وقال انه رأى جماجم كثيرة

من جماجم الذين سكنوا اوربا في العصر الحجري وقد ثقبت في الحياة او بعد الممات . وبعض الذين ثقبت جماجمهم في حياتهم عاشوا بعد ثقبها كما يظهر من ميل العظم الى النمو والالتحام . ثم تناول هذا الموضوع الدكتور بروكا الشهير ونشر مقالة مطولة فيه سنة ١٨٧٦ وتلاهُ غيرهُ من العلماء كالموسيو نادلياك والكونت دلنيلاً

وظهر من مباحث هؤلاء العلماء وغيرهم ان الشعب الذي كان يثقب جماجمه اتى اوربا من بلاد القوقاس والقرم وانتشر في بلاد الالمان والدانيمرك واسوج ودخل بريطانيا وفرنسا وتحصّن في بريتاني من اعمال فرنسا ثم انتقل الى اسبانيا والبرتوغال وعبر بوغاز جبل طارق وانتشر في شمالي افريقية وسار الى بلاد الشام واقام في فلسطين . والمظنون ان الاموريين الذين كانوا يسكنون بلاد الشام منذ ثلاثة آلاف سنة هم من بقايا هذا الشعب . ولم يذكر ذلك في كتاب ولا رواهُ احد من الرواة بل استنتجهُ علماء العاديات استنتاجاً من دفائن هذا الشعب الباقية الى الآن فانها منتشرة في البلدان المشار اليها . ويستدلُّ من قِدَم الآثار التي فيها على ان ذلك الشعب سار في الخطة التي ذكرناها وكان ذا بأس وصولة يخضع الشعوب التي يمرُّ بها ويتخذ رجالها عبيداً ونساءها إماء . واسلحته وادواته من الصوان وهي بالغة حدّ الاتقان في قطعها وصقلها من فؤوس وسهام وخناجر . ولم يكن يدفن موتاهُ في اول الامر بل كان ينزع لحمها عن عظمها ويدفن العظم ولعلهُ كان يأكل اللحم او يطعمهُ للوحوش والكواسر ولم تزل آثار سكاكين الصوان على العظام وبعض هذه العظام موضوع في غير مكانهِ فتجد اليد اليمنى موضوعة في الكتف اليسرى واليد اليسرى في الكتف اليمنى . ولكن ذلك كلهُ ليس محل الغرابة وانما محل الغرابة هو ان بعض الجماجم مثقوب ولا يكون الثقب في جهة واحدة بل يختلف مكانهُ ولكنهُ لا يكون الاَّ حيث الرأس مغطى بالشعر

والثقوب المشار اليها لم تحدث في ساحة القتال من ضرب سيف او فأس لانهُ لم يكن عند ذلك الشعب سيوف من الحديد والشبه بل ادوات من الصوان بتعذر قطع العظم بها قطعاً مستوياً خالياً من الكسر والشق . ويظهر ايضاً ان بعض الناس ثقبت رؤوسهم وهم اطفال ثم عاشوا وصاروا رجالاً ونساء وعظام رؤوسهم مثقوبة اما الثقب فكان بادوات من الصوان فيمسك الثاقب الاداة بيدهِ ويقطع بها اللحم ويكشطهُ ثم يديرها على العظم ولا يزال يحكهُ في دائرة حتَّى يقطع قطعة مستديرة فينزعها منهُ

وفي دار التحف بمدينة لسبون عاصمة البرتوغال جمجمة شرع القاحف في قطع عظمها ولم يتم عملهُ . وفي متحف بروكا جمجمة انسان آخر مات بينما كانوا يثقبون راسهُ . وقد وجدت

جماجم ثقبت بآلة مسننة كالمنشار. ووجد البارون او باي جمجمة ثقبت مرتين في حياة صاحبها والظاهر ان الذين كانوا يثقبون رؤوسهم كانوا يأخذون قطع العظم المنزوعة منها و يعلقونها في رقابهم لان هذه القطع توجد في قبورهم وقد ثقبت ثقبًا صغيرًا من احد جوانبها او ثقبين لتتعلق بهما وقد صقلت من طول الاستعمال

ومما هو من الغرابة بمكان ان ثقب الجماجم كان مستعملاً في اميركا ايضًا فقد وجدت فيها جماجم قديمة مثقوبة كالجماجم التي وجدت في اوربا . وان اهالي الجبل الاسود يثقبون جماجمهم حتّى يومنا هذا لاقل علة . ذكر الدكتور بولونغ في كتابه عن الجبل الاسود انهُ يعرف اناسًا ثقب رأس الواحد منهم ثماني مرات في حياتهِ ولم يصب بمكروهٍ

وقد وجد في مدافن اوربا القديمة كثير من الجماجم المملوءة بعظام الاطفال . والظاهر انها عظام رجال كان ارامليهنّ يعلقنها في رقابهنّ و يضعنَ فيها عظامًا من عظام اطفالهنّ. وتعليق العظام في العنق كعود عادة لم تزل متبعةً في بعض جهات ايطاليا الى يومنا هذا

ومما يجب ذكرهُ في هذا المقام ان المدافن القديمة التي وجدت فيها الجماجم المثقوبة كان في كل مدفن منها حجر مثقوب او كان امامهُ حلقة من الحجارة مفتوحة من احدى جهاتها . والمرجح ان بين الحجر وثقب الرأس علاقة وان كلاًّ منها باب تخرج منهُ الارواح الشريرة . وان القدماء كانوا يثقبون جماجم الاحياء المصابين بجنة ليخرج الشيطان من ادمغتهم حسب زعمهم . قال العلاّمة بروكا في هذا المعنى ما خلاصتهُ "ان ثقب الجماجم كان يستعمل في الامراض المفاجئة بناء على الاعتقاد الشائع حينئذٍ وهو ان كل آفة عصبيّة كالجنون والصرع والبلاهة لا بدّ وان يكون سببها شيطان او روح خبيثة تسكن الانسان . ومَن يستطيع ان ينكر ان ثقب الرأس لم يكن شائعًا عند الاقدمين لاخراج الشياطين اما ثقب رؤوس الصغار والاطفال فاظن ان سببهُ تعيين الصغار لخدمة دينيّة فانهُ كان عند القدماء كهان مقامون للخدمة الدينيّة ولا يبعد انهم كانوا يعينون ابناءهم لهذه الخدمة صغارًا فيثقبون رؤوسهم لهذه الغاية . والخطر على الحياة من ثقب الراس ليس كثيرًا كما يظن اذا كان الانسان سليمًا واما اذا كان عليلاً فالخطر ليس من ثقب الرأس نفسهِ بل من العلة التي فيهِ . هذا ناهيك عن ان الانسان يستسهل كل صعب قيامًا بمطالب ديانتهِ . وحتّى الآن نجد بعض متوحشي افريقيّة يقطعون عضوًا من اعضائهم اكرامًا لمعبوداتهم فلا يبعد ان القدماء كانوا يقطعون جانبًا من جماجمهم لهذه الغاية

هذا ولا يخفى ان اللغة مستودع التصورات والتصديقات فيرى فيها الناقد البصير تاريخ

الامة التي تتكلم بها ولو قدم عهده وعفيت آثاره . وهي اذا كانت قديمة محفوظة كاللغة العربية وجد الباحث في موادها ما يعجز عن وجودهِ في تواريخ الامة وعاداتها . وشواهد ذلك كثيرة كما جاء في مقالات صديقنا الفاضل جرجي افندي يني الطرابلسي عن العرب قبل التاريخ . واذا طالعنا كتب اللغة رأينا فيها مادة قَحَفَ بمعنى قطع قحف الرأس او كسرهُ وبمعنى شرب ما في الاناء او استخرج ما فيهِ والقاحف مستخرج ما في الاناء . والقحفُ اناء من خشب مثل قحف الراس . ومناد ذلك ان العرب كانوا يقطعون قحف الراس وكانوا يصنعون اناء من خشب يشبه القحف بصورتهِ قحفًا ايضًا ومنهُ "اليومَ قِحاف وغدًا بِقاف" اي اليوم شرب بالقحاف . ولا يبعد انهم كانوا يستعملون قحف الراس نفسهُ قدحًا يشربون بهِ ثم صاروا يصنعون القحاف من الخشب . ولعلَّ ابا الطيب المتنبي اشار الى ذلك حيث قال

كأنَّ خيولنا كانت قديمًا تسقّى في قحوفهمِ الحليبا

فمرَّت غير نافرة عليهم تدوس بنا الجماجم والتريبا

الاَّ ان ذلك لا ينافي ما اثبتهُ العلماء المشار اليهم آنفًا من ان بعض الشعوب كانوا يتخذون رؤوس الاحياء لغاية طبيَّة او دينيَّة

ذَوق العجماوات وتدينُها

قال بعضهم ان اعظم فارق بين الانسان والعجماوات هو قلة ادراك العجماوات لما في المصنوعات الجميلة من الجمال وكأنَّ الاستاذ هكسلي يذهب هذا المذهب ايضًا كما يستنتج من بعض اقوالهِ ولكن الفيلسوف هربرت الجرماني وهو من اكبر فلاسفة العصر خالف ذلك وقال "انني لو سئلتُ عما اذا كان لنوع الانسان ميزٌ عامٌ غير طبيعي لقلتُ انني لا اعلم بوجود هذا الميز ولا احسبهُ موجودًا" . ثم ذكر الميزات الطبيعيَّة التي يمتاز بها نوع الانسان كالنطق واستعمال اليدين وطول مدَّة الطفولية وقال ان مزاياهُ العقليَّة تتوقف على هذه الميزات الطبيعيَّة

وظاهر الامر ان الانسان دون كثير من طوائف الحيوان في اكثر قواهُ الجسديَّة فهو دون الوحوش في قوتهِ البدنيَّة ودون ذوات الثدي في نمو اسنانهِ وارتقائها . وحاسة الشم فيهِ اضعف منها في الكلب وحاسة البصر اضعف منها في النسر وعنبهُ اضعف من عنب الغنم وقدمهُ اضعف من قدم الخيل

وقد ذهب البعض الى أن ضعف الانسان في طفولتهِ يميزهُ عن كل انواع العجماوات